كنتُ سأكون كاتبًا مسرحيًا... لو!

جمعة الحلفي

ربما كنتُ اليوم كاتبًا مسرحيًا (مَنْ يَدْري؟) لو أنّني تحلَّيتُ، يومها، بقدْرٍ من الشجاعة على مواجهة الرفيق... أَقْصد الرقيب الحزبي، وتمسّكتُ جيدًا بأذيال ستائر المسرح!

ليس هذا عذرًا لضياع تلك الموهبة المزعومة، بل هو دليل على إمكانية أن يَقْمع الأهلُ مواهبَ الأبناء، حرصًا عليهم من الشطط الفكري أو مِنْ تعلُّم الشيطنة وروح المشاكسة. وقد نجحوا معي في ذلك الدرس مرةً وإلى الأبد. وها أنذا لم أكتب حرفًا في مجال المسرح، بعد ذلك النص اليتيم، منذ العام ١٩٨٠ وحتى يوم الناس هذا، واستعضتُ، بدلاً من ذلك، بتمثيل دور وحيد في مسرحية كَتَبها مظفّر النوّاب وأَخْرجها باسم قهار وعُرضتْ في دمشق عامَ ١٩٩٥. ولأنّ الموضوع ينتمي إلى الماضي فستتكرّر هنا كان وأخواتها مثل شهود العيان على خيبتي تلك.

❖ ❖ ❖

كنّا في اليمن السعيد، أيامَ كانت عدن قِبْلةَ اليسار العربي كان الوقت ثوريًا جدًا، وكنّا معبّئين بالانكسار إثر ضياع جهودنا وآمالنا وأحلامنا في بناء الاشتراكية في العراق، وذلك بعد انهيار الجبهة الوطنية العتيدة وقيام السلطة بشنّ حملتها البوليسية التي استهدفتْ طردَ الشيوعيين من العراق... أو مِنَ الحياة إنْ أَمْكن!

جالت في دخيلتي، يومَها، فكرةُ المسرحية. وبعد جلسات من الحوار والنقاش والأخذ والردّ، في أمسيات رطبة، شجّعني الأصدقاءُ المسرحيون على خوض غمار التجربة، فبدأتُ الكتابة. ويومًا بعد آخر، كانت الفكرة تتجسّد على الورق حرفًا حرفًا ومشهدًا مشهدًا وفصلاً بعد فصل، حتى نضجتْ. ومن شدة التوق لم يَنْتظر أصدقائي المسرحيون اكتمالَ النص، فدلفوا في الكواليس يهيّئون عُدّةَ العمل. وما هي إلاّ أيام حتى أنجزتُ النص، فبدأت التمرينات: مرةً في بيت خليل الحركاني، وأخرى في غرفة المسرحي الأعزب (آنذاك) إسماعيل خليل، وثالثةً في بيتي المشترك مع الفنان الموسيقي سامي كمال.

كانت المسرحية عبارةً عن مشهد مأساوي طويل من مشاهد التراجيديا العراقية: سجين شيوعي يتقلّى بين نار التعذيب ونار المكيدة السياسية التي أَسْفرتْ عنها تجربةُ «الجبهة الوطنية» وهو يستعيد، عبر حوار داخلي عميق، تاريخَ المظالم والنكبات والسياسات الخرقاء والأخطاء الفادحة التي أَوْصلته، ومعه أبناءُ جيله، إلى ما هو وما هم عليه، ومعهم العراقُ برمّته، مستخلصًا من ذلك كُلِّه حقيقةً مريرةً تتمثّل في فداحة ذلك الخراب القادم؛ فما دام حراسُ السدّ هم أنفسُهم تلك الجرذانَ الضالةَ، فعلى مأرب السلام... هكذا كان السجينُ يردِّد مع نفسه شيء من هذا القبيل هو الذي كانت تدور حوله فكرةُ المسرحية. وعلى واقعية وموضوعية الحيثيات، التي كانت مرئيةً للقاصي والداني، لم تُعجب المسرحيةُ الرفيقَ... عفوًا الرقيبَ الحزبي. وفي حين كان يُمْكن أن يجد

للأمر ألفَ حلٍّ وألفَ تبرير، إلاّ أنّه استسهل الحلّ المعتاد والجَلِف: تمزيقَ النصّ وإغلاقَ أبواب المسرح.. كي لا تَجْلب لنا الريحَ ـ هكذا قال لمن حوله!

❖ ❖ ❖

لاذ المسرحيون الشباب بالصمت أمام خطبة الرفيق الرقيب وهو يَعِظُهم عظةً عصماءَ عن ضرورة الالتزام والضبط الحزبي وسلامة الطويّة، متذرِّعًا بالظروف العصيبة والأوقاتِ الحرجة ومسؤوليات الحزب الكبرى. أما كاتب النص اليتيم، العبد لله، فقد أَكَلَها إنذارًا أوليًا، يُشْبه البطاقةَ الصفراءَ في مباريات كرة القدم، إنذارًا (قد) يَفْضي إلى بطاقة حمراء في حال تكرار مثل هذا الشغب المسرحي، الذي كان يراه الرقيب.. عفوًا الرفيق، تصيدًا محظورًا في المياه الحزبية العكرة.

وهكذا، بعد ذلك الدرس البليغ، تمثَّلَ الكاتبُ روحَ الانضباط، وتشرَّب مبدأَ الالتزام. أما بيضة الديك، التي باضها في أمسيات عدن الرطبة، فقد تفرفطتْ أوراقُها ومشاهدُها وفصولُها بين محطات المنافي التالية. وظلّ ذلك السجينُ الشيوعي قابعًا في سجنه يَلُوك مونولوغاته وحيدًا في ظلمة زنزانته، لم نسمع شكواه ولم نَطّلع على صفحات روحه وقرارة نفسه.

الآن، بعد خمسة وعشرين عامًا، يُمْكنني، بل يحقّ لي، أن أَزْعم بأنّني كان يمكن أن أصبح كاتبًا مسرحيًا لو أنّني تحلّيتُ، يومها، بقدْرٍ من الشجاعة في مواجهة الرقيب.. نعم الرقيب الحزبي، وتمسّكتُ جيدًا بتلابيب ستائر المسرح.

لكنْ، ما نَفْعُ «لَوْ»؟

جمعة الحلفي

شاعر وكاتب عراقي